مجلة سلسلة الأنوار
مخبرالأنساق، البنيات، النماذج والممارسات
جامعة وهران2

المجلد 3 / العـدد: 10 _30 نوفمبر 2019، ص 01- 10

الفلسفة كانشغال باليومي

أ.د. رباني الحاج
جامعة معسكر

الملخص:

ارتبطت نشأة الفلسفة بحاجة الإنسان للفهم والإيضاح، ومع ذلك ظلت أفكارها محل نقاش يصل حد الخلاف،هل هي قريبة من الإنسان وهمومه ومشكلاته أم أنها تصورات مجردة منفصلة تماما عن عالمه؟، لكن العودة إلى تاريخ الفلسفة يكشف عن صلتها الوثيقة بالإنسان، فالفلسفة كانت ولازالت حارسة المدينة، ولا زالت لها صلة مباشرة بالإنسان حتى في زمن العلم، فالمشكلات التي يعانيها المجتمع المعاصر كثيرا ما يعجز العلم عن فهمها وتحليلها إلا بالعودة إلى التساؤلات الفلسفية، لذلك يبدوا أنه من غير المنصف الحكم على الفلسفة أو فهمها باعتبارها فكرا مجردا وميتافيزيقيا منفصلا تماما عن واقع الإنسان.

كلمات مفتاحية: الفلسفة؛ الإنسان؛ الواقع؛ الأخلاق؛ السياسة، اليومي.

Abstract:

The origin of philosophy has been linked to the human need for understanding and clarification. However, its ideas have been subject to controversy, are they close to man, his concerns and problems, or are abstract perceptions completely separate from his world? But the return to the history of philosophy reveals its close connection to man. Philosophy was and still is the guardian of the city. , And is still directly related to man even in the time of science, the problems experienced by contemporary society often can not understand science and analysis only back to the philosophical questions, so it seems that it is unfair to judge or understand philosophy as a completely abstract and metaphysical thought completely On the reality of man**.**

Keywords : Philosophy, Human, Reality, Ethics, Politic.

- **أستاذ التعلم العالي ، elhadj.rebani@yahoo.fr، جامعة معسكر**

مقدمة:

الفلسفة فكر إنساني في أساسها ومع ذلك ظلت تحيط بها الشكوك من طرف الإنسان ذاته الذي يرى أنها تحلق بعيدا في السماء غير عابئة بواقعه ومصيره، لأنها بحيث في الماورائيات والمثاليات وما ينبغي أن يكون متجاهلة أو عاجزة عن معرفة ما هو كائن، فالمشكلات الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية لا يمكن للفلسفة أن تجدلها حلا، لأن مشكلات واقعية تقتضي حلولا عملية لا نظريات فلسفية، لكن في هذا الموقف من الفلسفة تجاهل لحقيقتها وتاريخها الذي يفند أن تكون بعيدة عن الإنسان منشغلة عن واقعه فالفلسفة نشأت في قلب وحضن الضمير الإنساني، محاولة فك ألغاز الكون والطبيعة البشرية، فالحاجة إلى الفهم والإيضاح والعقلنة حاجة أساسية، يتم من خلالها تلبية بقية الحاجات الأخرى، لذلك قال سقراط مقولته الشهيرة التي ظلت أساسا للفلسفة في كل زمان ومكان" أعرف نفسك بنفسك" فالمعرفة الحقيقية هي معرفة إنسانية وأرقى وأهم موضوع للمعرفة هو الإنسان ذاته، فهل يمكن القول أن الفلسفة بعيدة عن الاهتمام بمشكلات الإنسان اليومية؟

الحقيقة التي تعرض نفسها هي أن الفلسفة ارتبطت بالعقلنة والبرهنة ورفع الغموض والسحر عن العالم، لذلك كانت منذ بدايتها تدور في عالم الإنسان لترفع من شأنه، حتى عندما كانت تبحث في طبيعة الكون المادي والفيزيائي، قبل أن تتحول إلى البحث في الإنسان والتساؤل عن طبيعة وجوده مع السفسطائيين الذين جعلوا منه مقياس كل الأشياء، مما جعله موضوع الفلسفة الدائم بامتياز واقتدار، فالفلسفة تستمد نفسها من الإنسان الذي يبحث عن أفضل الطرق التي تؤدي به إلى فهم نفسه وفهم ما يحيط به، لتحقيق الانسجام مع ذاته ومع العالم الخارجي بطريقة منتظمة وقد لعب السفسطائيون دورا هاما في هذا الاتجاه، إتجاه العمل من أجل تحقيق الاستقلال الذاتي والتميز الفردي في سياق تغلب عليه الروح الأنانية والمصلحة الشخصية، فأرسوا بذلك قاعدة سلوكية تؤكد على

الصراع كحقيقة للطبيعة البشرية، فالإنسان بطبيعته يميل إلى مصلحته الشخصية التي لا تراعي المصلحة الجماعية أو العامة، فامتلاك القوة وحده الكفيل بتحقيق الذات في واضع بشري قائم على النزاع والصراع، وبذلك دشن هؤلاء السفسطائيون القول في الإنسان باعتباره طبيعة عمياء تسير في اتجاه اكتساح كل ما يأتي في طريقها، ولا يمكن لهذه الطبيعة أن تضع حدا لطموحها وجموحها إلا عندما تصطدم مع ذاتها وبالتالي فهي خاضعة لحتمية داخلية تحدد قوانينها، الأمر الذي يفرض على الإنسان باعتباره فردا أنانيا أن يتوافق مع الآخرين، ليحافظ على مصلحته الخاصة، وهذه مشكلة أساسية كانت ولا زالت تؤرق الإنسان إلى اليوم وهي مشكلة الاجتماع البشري، طبيعته؟ أهدافه؟ الغاية منه؟ هل هو قائم على التعاون أم الصراع؟ هل أهدافه أخلاقية أم مادية؟.

إنها مشكلة أساسية في الحياة البشرية، طرحتها الفلسفة وظلت تعالجها وفقا للسياقات التي تفكر ضمنها، فساعدت بذلك الإنسانية على التفكير في إنشاء اجتماع بشري يراعي خصوصيات الطبيعة البشرية، فالسفسطائيون لم يكونوا مجرد خطباء ومعلمين لفن الخطابة، بل كانوا يفكرون في واقعهم اليومي، فدفعتهم الجرأة إلى تقرير واقع لا أخلاقي لا يمكن أن تعترف بحقيقته إلا الروح الفلسفية التي تقول الأشياء كما هي، فالسفسطائيون واجهوا الإنسان بمشكلاته التي تجعله وجها لوجه مع ذاته، فمشكلته الأساسية في الأنانية وحب الذات والسعي إلى السيطرة وامتلاك القوة، وإتخاذ موقف العداء من الغير، والتنافس من أجل الرغبات الفردية لكنهم يمارسون كل ذلك بشكل مضمر وغير معلن، بل يعملون من أجل إخفاء ذلك وراء ستار البحث عن الفضيلة والحقيقة.

هذا النقد يؤسس لفلسفة منخرطة في صلب اليومي باعتباره همّا إنسانيا وهو ما دفع بفيلسوف مثل سقراط إلى البحث عن سبب المعاناة التي يعيشها الإنسان، فيعيدها إلى الجهل أي عدم معرفة الإنسان لنفسه، فيرى أن المشكلة الحقيقية التي تترتب عنها جميع المشاكل الأخرى هي ذلك الجهل الذي يقف عائقا بين الإنسان وتحصيل المعرفة الحقيقية بنفسه، فالواقع الذي يجد عليه الإنسان نفسه ليس قدرا محتوما، بل الحتمية

الحقيقية هي في العمل على تصحيحه وتصويبه بما يقتضيه العقل، وذلك ما قام به سقراط بإتباعه أسلوب المحاورة مع مواطني أثينا بتصحيح مفاهيمهم وتعليمهم فن الجدل من أجل الوصول إلى تحديدها، وهكذا يساعد سقراط محاوره على الرجوع إلى نفسه "لتكون له هاديا ومرشدا، عندما تكتشف له بوساطة التوليد - شيئا فشيئا الحقائق الأخلاقية التي ليست إلا معرفة للطبيعة الإنسانية، هذه الطبيعة التي يحملها كل منا ولكن القليلين هم الذين يستطيعون التعبير عنها بما يجليها للناس جميعا"[1].

حاول سقراط أن يعلم الناس كيف يعملون على تغيير الواقع الذي يعيشون فيه بتغيير أفكارهم وتصحيح مفاهيمهم المغلوطة، ولم يجاري السفسطائيين في تكريس الواقع، واعتباره دليلا على الطبيعة البشرية، فالطبيعة البشرية اختفت تحت ركام الواقع لذلك يجب استعادتها والاهتداء بقوانينها الثابتة التي لا تتغير بتغير الظروف، فالإنسان كائن مقاوم، ومصدر مقاومته هو طبيعته ذاتها، لأنها تميل إلى الخير والفضيلة والسعادة، وهذا يبين لنا اهتمام الفلسفة بالإنسان في صورة سقراط الذي ضحى بحياته من أجل حياة إنسانية فضلى وحقيقية، فنقده للواقع اليومي وعدم تقبله أدى به إلى تجرع السم ومرارة الموت، وهو ما زاد هذا التقليد الفلسفي رسوخا لا يمكن أن يتجاوزه الزمن مهما تغيرت الظروف، وهو تقليد كرس وضع الفيلسوف في مواجهة مستمرة مع الواقع الذي يلقي بثقله على الإنسان، فالفلسفة تظل ترفع التحدي لمواجهة ضرورات وحتميات الواقع، وأساس هذا التحدي هو التفكير النقدي في الوضع الإنساني الذي ترفض الفلسفة أن يكون وضعا نهائيا، فالفلسفة ترى أن حدود الواقع تمتد إلى المستقبل والممكن، فالإنسان قادر على تغيير واقعه نحو الأفضل وفقا لمعايير العقل، فعلى الرغم من أن سقراط لم يترك لنا نسقا فلسفيا متكاملا إلا أنه ترك لنا موقفا فلسفيا نقديا ينخرط فيه بفكره وروحه ويعالج من

[1]– محمد الجبر، الخلاق في الفلسفة اليونانية، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2003، ص 67.

خلاله مشكلات الإنسان الفكرية والأخلاقية" وفي هذا يعد سقراط في صميم زمرة الأخلاقيين الذين سعوا لتوفير نظام عملي يهيئ للإنسان حياة سعيدة ومنظمة"[2].

فسقراط نموذج الفيلسوف الذي انكب اهتمامه على مشكلات الإنسان اليومية في صيغتها الأخلاقية والدينية، ومهما "تباينت وجهات النظر بين سقراط والسفسطائيين، فهو يتصل بوصفه مفكرا بالحلقة "الإنسانية" ذاتها التي بدأت مع السفسطائيين كقوة فكرية في بلاد الإغريق، وحسب أرسطو فإن سقراط تكلم في الأخلاقيات ولم يتكلم في شيء من الطبيعة الكلية"[3].

فالأخلاق بالمعنى السقراطي تشمل جميع مجالات الحياة الإنسانية وليست مجرد بعد من أبعادها، لذلك ارتبطت بالمعرفة باعتبارها إدراكا للماهيات المتوارية خلف الأعراض الظاهرة للعيان، وهو ما يعني أن تغيير المفاهيم لا يحصل إلا بالعودة إلى الذات واستكناه قوانينها الثابتة، التي يتم على ضوءها إدراك نقائص الواقع الاجتماعي، وطبيعة المشكلات التي تواجهها الحياة الإنسانية، والواقع أن "من مقومات الوجود البشري أن الكائن الذي لا يستطيع أن يتقبل وجوده كمحض واقعة، فهو بالتالي يسائل نفسه عن نفسه، ويضع وجوده موضع البحث ويجعل من نفسه مشكلة، وكيف لا يكون الإنسان "مشكلة" وهو الكائن الذي يشيع في الوجود الاضطراب والانقسام والشر والقلق والعدم...؟"[4].

فالفلسفة ليست فكرا خارجيا عن الإنسان، إنها صادرة من كيانه، لذلك دعى سقراط إلى العودة إلى الذات، تلك العودة هي السبيل للخروج من المشكلات الزائفة إلى المشكلات الحقيقية، فمشكلات الإنسان الحقيقية مرتبطة بإدراكه لذاته والعالم الذي يوجد فيه،

---

[2]- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص 175.

[3]- المرجع نفسه، ص ص 175 - 176.

[4]- زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، ص ص 5- 6.

فانجرافه وراء الوقائع المتغيرة يجعله في ابتعاد مستمر عن ذاته، مما يدفعه إلى الاعتقاد في وجود حقيقة خارجية لها طابع النسبية المطلقة، الأمر الذي يؤدي إلى الضياع في الفوضى والعيش في جو من القلق والاضطراب والشعور بالخوف وفقدان الثقة والأمل في بلوغ حياة أرقى وأفضل وتتحطم بذلك صورته عن الحقيقة.

إن ثقة سقراط بالحقيقة ورفضه للواقع القائم جعله يقبل على الموت كأنه مقبل على ميلاد جديد، والولوج إلى حياة جديرة بالاحترام، فحياة الإنسان ليست مجرد حياة بيولوجية، بل الحياة لها قيمة قبل أن تكون واقعة، فالحياة الحقيقية هي حياة الضمير والفكر، أو بالأحرى حياة الروح، وهذا ما جعل فيلسوف مثل بول ريكور(1913- 2005) يرى "أن حياة لا يمكن تأملها ليست جديرة بأن تعاش"، ومع ذلك فما كان يهم سقراط ليس العقل المفارق، إنما هو العقل العملي، العقل المنظم للممارسة، فالفلسفة اهتمت بالفعل والممارسة والعمل منذ نشأتها، فالنشاط الإنساني هو محرك التفكير الفلسفي ولازال الفلاسفة يعودون بالفلسفة إلى جذورها وأصولها الأولى كلما شعروا أنها بدأت تتجه إلى مواضيع خارجية بعيدة عن مشكلات الإنسان، فمشكلات الحق والعدالة والديمقراطية والمواطنة والحفاظ على الكرامة الإنسانية هي مشكلات أصيلة وعريقة في تاريخ الفلسفة، اختلفت مقاربتها ومعالجتها حسب السياق الذي وجدت فيه، لكنها بقيت في محور ومركز اهتمامات الفكر الفلسفي إلى اليوم، فمشكلات العلم تحولت إلى مشكلات إنسانية من المنظور الفلسفي، فإذا كان العلم يقوم على التفكير بالوسائل والأدوات فإن الفلسفة تفكر بالغايات، والغاية النهائية للفلسفة هي الدفاع عن خير الإنسان وكرامته وسعادته.

يقول إريك فروم "ومع ذلك، نرى أن الخيار بين التملك والكينونة قضية أساسية في تعاليم أساتذة الحياة العظام، فمن أجل الوصول إلى أسمى درجات النضج الإنساني يعلمنا بوذا أنه يجب ألا نشتهي ملكية شيء ومن تعاليم المسيح: "إن الذي يريد أن يخلص حياته يفقدها وأما الذي يفقد حياته في سبيلي فإنه يخلصها، فماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وفقد نفسه أو خسرها" ومن تعاليم المعلم إيكهارت أن شرط تحقيق القوة والثراء

الروحي ألا يملك الإنسان شيئا، وأن يجعل نفسه منفتحة خالية وألا يدع ذاته تقف عقبة في طريقه، ومن تعاليم ماركس أن الترف لا يقل رذيلة عن الفقر، وأن الهدف من الحياة هو مزيد من تحقيق كينونتنا وليس الاستزادة من ملكيتنا".[5]

إقتبسنا هذه الفقرة على طولها نظرا لإيحاءاتها المهمة وربطها للعظمة بذلك الأفق السقراطي، رغم أنها جمعت بين إتجاهات روحية ومادية، فمشكلة الإنسان بالنسبة لسقراط كما بالنسبة لهؤلاء العظماء هي مشكلة كينونة أي مشكلة معرفة وفهم وإدراك، ولذلك فتصحيح المفاهيم وتحديدها هو المهمة التي يضطلع بها الفيلسوف حتى يساعد الناس على بلوغ الفضيلة، وتجاوز مشكلات الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وهكذا نلاحظ كيف نشأت الفلسفة في تواشج مباشر مع مشكلات الناس وقضاياهم الحياتية "فإذا رجعنا إلى فلاسفة اليونان رأينا أن الفلسفة كانت حية على أيديهم لاتصال هؤلاء الفلاسفة بالحياة والناس، فهذا فيثاغورس كان صاحب مدرسة تضم ألاف التلاميذ، وكان سقراط يعلم في الملاعب والبساتين ويغشى دور الأثينيين، وافتتح أفلاطون الأكاديمية فطلب عليه العلم كثيرون من طلاب الحكمة وذهب إلى صقلية يعلم ملكها الفلسفة حتى يطبق نظريته في المدينة الفاضلة وكانت مدرسة أرسطو جامعة على المعنى الحديث وهو إلى ذلك معلم الإسكندر".[6]

فالأصل في الفلسفة هو انشغالها بمشكلات الإنسان الحياتية وليست نظرا مجردا أو فكرا منعزلا عن حركة الحياة، رغم أن بعض الفترات تتولد عنها فلسفات توغل في التجريد والابتعاد عن حركة الحياة اليومية، بل كانت الفلسفة وراء نشأة المدينة فلقبت بحارسة

---

[5]– إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 35.

[6]– أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص1.

المدينة، بحيث وضعت لها قواعد وقوانين وحددت لها غايات وأهداف تتمحور كلها حول الإنسان باعتباره كائنا عاقلا واجتماعيا وأخلاقيا، يشارك بعقله وفكره في بناء المدينة ككيان سياسي وأخلاقي.

فكان للفلسفة دورا توجيهيا تربويا ولم تكن مجرد تأملات ميتافيزيقية خالصة، وذلك منذ السفسطائيين إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن بعدهم الرواقيون والأبيقوريون، فتاريخ الفلسفة هو تاريخ التفكير في مشكلات الحياة الإنسانية، ولو تبعنا المسار إلى اللحظة المعاصرة لوجدنا الفلسفات الفينومينولوجية والتأويلية والبنيوية والتفكيكية والوجودية والماركسية والبراغماتية، جميعها فلسفات يحركها الوعي بمشكلات الحياة الإنسانية، وهو مايبين لنا ارتباط الفلسفة بالحياة الإنسانية في جميع أبعادها النفسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، مع أخذ خصوصية التفكير الفلسفي بعين الاعتبار، فالفلسفة لا تقدم حلولا جاهزة ومواقف مطلقة ونهائية، إنما تطرح الأسئلة وتنبه إلى المشكلات الحقيقية، وتترك للناس التفكير في الحلول الملائمة، واليوم نجد الفلسفات المعاصرة تتجه نحو المزيد من الانفتاح على الحياة الإنسانية كالبراغماتية التي ترى أن الديمقراطية فلسفة عملية، وعلى الفكر الفلسفي أن يطرح الأسئلة التي تساعد على فهم المشكلات التي تطرحها الديمقراطية باعتبارها أساسا لبناء نظم اجتماعية وسياسية تحترم حقوق الإنسان وكرامته في مجتمعات أكثر تنوعا وتعقيدا وتركيبا.

فالتنظير لأساليب الحوار والمناقشة والتواصل على يد فلاسفة معاصرين أمثال راولز وورورتي وهابرماس وغيرهم هو اشتغال على مشكلات الحياة الإنسانية في المجتمعات المعاصرة، وهي مشكلات تتمثل في العدالة والديمقراطية وبناء الفضاء العمومي.

إننا نعود في سياقات مختلفة إلى معرفة الإنسان للإنسان حتى نطرح الأسئلة الضرورية والمشكلات الحقيقية، نقد أساليب التفكير ومفاهيم المجتمع وهو عمل فلسفي يساهم في البحث عن أفضل العوالم الممكنة للحياة الإنسانية.

قد يقال أن الفلسفة بهذا البحث عن أفضل العوالم هي بعيدة عن الواقع الفعلي للإنسان، وهذا يجعلنا نتساءل هل يمكن تغيير واقع ما دون التفكير فيه؟

وإذا كان التفكير ضروريا فهل يمكن لأي تفكير حقيقي أن يكرر الواقع دون تغييره، وهل يمكن أن نبحث عن تغيير إذا لم نكن نعتقد أنه يتجه بنا نحو الأفضل؟.

فالقول بمثالية الفلسفة في تعاملها مع مشكلات الحياة الإنسانية لا يأخذ بعين الاعتبار أن الإنسان بطبيعته يسعى إلى ما هو غير موجود، وكل ما هو غير موجود في واقعنا الحالي يصبح مثاليا، فالمثالية أساس كل نقد وكل تغيير على أن نفهم من المثالية أنها ليست طوباوية أي تفكير حالم منقطع تماما عن الواقع الموضوعي وشروطه.

والفلسفة المعاصرة كشفت عن تواشج وتداخل الفكر مع الواقع لذلك فالوضع الإنساني وضع مركب ومعقد ولا يمكن تبسيطه من طرف الفلسفة كما يمكننا أن نتصور وهذا ما يعبر عنه بول ريكور (1913 - 2005) عندما يقول " فالفلسفة لا تبدأ أشياء على الإطلاق: بل هي باستنادها إلى اللافلسفة تعيش من مادة ما سبق فهمه دون تفكر، ولكن إذا لم تكن الفلسفة في الأصل بداية جذرية، فإنها تستطيع أن تكون كذلك في المنهج وهذا يقودنا إلى ما هو أقرب إلى فرضية العمل المرتبطة بفكرة فارق الإمكان بين الما قبل فهمية غير الفلسفية والبداية المنهجية للإيضاح".[7]

فالفلسفة لا تخلق واقعا جديدا لكنها تعمل على نقده والبحث عن أفضل الصيغ التي يتحول إليها وأفضل الطرق الممكنة لتغييره والتفكير فيه بشكل عقلاني وموضوعي، وعليه فالفلسفة ليست مجرد مثل بعيدة عن الواقع ومنقطعة عنه، بل كانت ولا زالت تفكر في الإنسان ومشكلاته الحياتية والوجودية التي تصادفه في واقعه اليومي.

---

[7]– بول ريكور، فلسفة الإرادة، الإنسان الخطاء، ترجمة عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2003، ص 30.

خلاصة القول، لا يمكن أن نتصور الفلسفة إلا في علاقتها بالواقع، لأنها نشأت في سياق إهتمام الإنسان بمصيره في هذا العالم ومن ثم جاءت لتطرح تساؤلات وتفتتح سبلا كانت مغلقة للوصول بالإنسان إلى مرحلة من النضج يستطيع معها أن يفكر في مشكلاته الوجودية والأخلاقية والسياسية بشكل سليم واقعيا ومنطقيا وأخلاقيا.

المراجع:

1. محمد الجبر، الأخلاق في الفلسفة اليونانية، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2003، ص 67.
2. عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص 175.
3. المرجع نفسه، ص ص 175 - 176.
4. زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، ص ص 5- 6.
5. إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 35.
6. أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص1.
7. بول ريكور، فلسفة الإرادة، الإنسان الخطاء، ترجمة عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2003، ص 30.